الثاني ...

عرج اذا ما شمت برق الشام * وحي اهل الحي والسلام * واتل باقليم جزيل الجيا * بارك فيه الله رب الانام
العز والنصر لديه وما * لعروة الاسلام عنه انفصام * من اوليا الله كم قد حوي * وكم بمرآه يطيب المقام
وهو مقر الانبيا الاولي * والاصفيا والعلما الكرام * كم من شهيد في حماه وكم * من عالم فرد وكم من امام

ولذلك اعتنت الجهابذة بتقليد اخباره في الدواوين * وابتنت الاساتذة بيوت افتخاره المنيفة الاواوين * وتناقلت ابناءه البديعة السنن الراوين * وهامت باماكنه المريعه * هداة الشريعه * فضلا عن الشعراء الغاوين * ومع ذلك فهم في التعبير عن محاسنه غير متساوين * اولا يرى انهم ياتون من مقولهم على قدر رايهم وعقولهم * ولم يبلغ جميعهم ما كانوا له ناوين *

علي قدر كاسها توليك نشوة * بها يستوي اعداؤه وصحابه * ولو انها تعطيك منها بقدرها * لضاقت بك الاكوان وهي رحاب *

وكنا في خلال الاقامة بدمشق المحروسه * واثناء التامل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطه * كثيرا ما ننظم في سلك المذاكره درر الاخبار الملقوطه * ونتفيا من ظلال التبيات * مع اوليك الاعيان * في مجالس مغبوطه * نتجاذب فيها اهداب الاداب * ونشرب من سلسال الاسترسال * ونتهادي لباب الالباب * ونمد بساط الانبساط * ونسدل اطناب الاطناب * ونقضي اوطار الاقطار * ونسدي اعلام الاعلام * فيجر بنا الكلام * والحديث شجون * وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون * الي ذكر البلاد الاندلسيه * ووصف رياضها السندسيه * التي هي بالحسن منوطه * وقضاياها الموجهه التي لا يستوفيها المنطق مع انها ضروريه وممكنة ومشروطه * والفطن السليمه * والافهام المستقيمه * بتسليم براهينها قاضيه * لا سيما ان كانت بالانصاف مربوطه * فصرت اورد من بدايع بلغايها ما يجري على لساني * من الفيض الرحماني * واسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني * صب الله عليه شآبيب رحماه وبلغه من رضوانه الاماني * ما تثيره المناسبة وتقتضيه * وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه * من النظم الجزل * في الجد والهزل * والانشا * الذي يدهش به ذاكره الالباب ان شاء * ويصرفه في فنون البلاغه حالي الولاية والعزل * اذ هو اعني لسان الدين فارس النظم والنثر * في ذلك العصر * والمنفرد بالسبق في تلك الميادين باداة الحصر * وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله ايدي الهصر * ونثره يزري صورته بالخريدة ودمية القصر * فلما اكثرت ذكره غير مرة على اسماعهم * لهجوا به دون غيره حتى صار كانه كلمة اجتماعهم * وعلق بقلوبهم وانتهى منتهى مطلوبهم * ومنية امالهم واطماعهم * وصاروا ينطقون به ذا الرغبة فنونه * ويعترفون ببراعته ويستحسنونه * ويستنشقون من ازهاره كل زاك * فطلب مني المولى احمد الشاهيني اذ ذاك * وهو الماجد المذكور * ذو السعي المشكور * ان انصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض احواله وانبايه * وبدايعه وصنايعه ووقايعه * مع ملوك عصره وعلمايه وادبايه * ومفاخره التي تقلدها جيد الزمان ولبته * وماثره التي تارج بها سرى الشمال وهبته * وبعض ما له من النثار والنظام * والمولفات الكبار العظام * الرايقة للابصار * الفايقة على كلام كثير من اهل الامصار * السايرة مسير القمر والشمس * المعقودة عليها الخناصر بل الخمس * كيما يكون ذلك لهذه الاغراض شيعا * ويخلع على مطالعه من هذه البلاد المشرقيه من اغراضه البديعة ومنازعه وشيا * فاجبته اسماه الله قدره الكبير * وادام عرف فضايله المزري بالعنبر والعبير * بان هذا الغرض غير سهل * ولست والله له باهل * من جهات عديده * اولها قصوري عن تحمل تلك الاعبا الشديده * اذ لا يوفي بهذا الغرض الا الماهر بطرق المعارف السديده * وثانيها عدم تيسير الكتب المستعان بها على هذا المرام لاني خلفتها بالمغرب واكثرها في المشرق كعنقاء مغرب * وثالثها شغل الخاطر باشجان الغربة الجالبة للفكر غالب الكربه * وتقسم البال * بين شغل عايق وبلبال * واني يطيق سلوك هذا المضيق * من اكتحلت جفونه بالسهاد * ونبت جنوبه عن المهاد * وسدد نحوه الاسف سهمه * وشغل باله ووهمه * وبث في قلبه تبريحا * وعنا لم يجد منه الا ان يلطف الله تبريحا * فما شام بارقة امل الا في النادر * ولا ورد منهل صفاء الا وكدره مكر غادر * وقد كثر الجفا * وبرح بي لذلك الخفا * واستوخمت الموارد والمصادر * والقلب مكلوم * واللب غير مسلوم * اذا كان على تلفيق ما يليق غير قادر * ولا مونس الا شاكي دم بلسان صريح * او باكي * قاصمة ظهر بجفن قريح * او مناضل في معترك الهوى طريح * او قاصل دنى من الحمول في ضريح * اذ رمته سهام الاوهام الصوايب * وعضت منه ابهام الابهام بنابها النوي والنوايب * فقلوبه من تقلبات احواله ذوايب * وكم شابت من امثاله بصروف الدهر واهواله ذوايب *

على انها الايام قد صرن كلها * عجايب حتى ليس فيها عجايب *

وادمع اجفانها تسلط تجارها * فكم من عدو منهم في ثياب صديق وحسود لنظر نعم الله على عباده بتحديق * لا تخدعه المداراه * ولا تردعه المماراه * يتتبع العثرات ويقنع بالم البشرات * ويتبسم * وقلبه من الغل يتقسم * ويتودد * ومكايده تتجدد فتتعدد *

لا ترم من مماذق الود خيرا * فبعيد من السراب الشراب * رونق كالحباب يعلو على الما *
ولكن تحت الحباب حباب * عظمت في النفاق السنة القو * م وفي الالسن العذاب العذاب *

والصديق الصدوق في هذا الزمن قليل * وقد الف بعض العلماء شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل * وهو غير محمول على الاطلاق * وان قال بعض من رهنه من ابنا عصره ذو اعلاق *

ابناء دهرك فاتقهم * مثل العدا ابسلاحكا * لا تغترر بتبسم * فالسيف يقتل ضاحكا *

وذا الحسد اعيى الاول والاخر * وقد عظم الامر في هذا الاوان وكثر المزري والساخر * مع ان اسواق الدفاتر كاسده * وامزجة المحابر فاسده * والذم ذم الجاهلين * والاهل العلم فاتر * لا سوق اكسد فيه من سوق المحابر والدفاتر * فالمنسوب للعلم في ذا الزمن زمن * وهو بادي ينشد قول الاول فمن * لاي وميض بارق اتشيم * ومرعى الفضل عندهم هشيم * وليت شعري على من يحسد من ابدل الاقتراب شارته * واضعف الاضطراب اشارته * واهل بالدموع انواءه *

وقل

وقل اضواءه * وكثرت علله وادواءه * وغير عند التامل دواءه * ونبي عن المامول عنانه * وارهف بالخمول سنانه * حتى قدح الذكر جنانه * وملا الفكر جاشه وجنانه * فهو في ميدان النزوح مستبق * ومن راحة التعب مصطبح ومغتبق شعر

له انه المشتاق في كل ساعة * تمر وما للثاكلات من الحزن *
ومن مرسلات الدمع واقعة الاسى * ومن عاديات البين قارعة السن *

تثير الذكرى منه كوامن الشجون * وتدير عليه جام الحمام ولو كان بين الصفا والحجون شعر

وتحت ضلوع المستهام كآبة * تخاف على الاحشا منها التقطعا *
ولو ان احشاء تبوح بما حوت * لتملين الارض كتبا واسطرا *

وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب * والسكون في الوكون والنبو عنها والاضطراب * فذاك تسهل فيه المباغي والاغراض والمارب * وهذا تتعذر كذلك المقاصد وتتكدر المشارب * شعر

وما انا عن تحصيل دنيا بعاجز * ولكن ادري تحصيلها بالدنية *
وان طاوعتني رقة الحال مرة * ابت فعلها اخلاق نفس ابية *

وكما قلت عندما مرت الي الاغتراب والت شعر

تركت رسوم عزي في بلادي * وصرت بمصر منسي الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا * وقلت لها عن العليا صومي *
مخافة ان اري بالحرص ممن * يكون زمانه احد الخصوم *

وكما قال بعض الاكابر من اهل الزمان الغابر شعر

لا عار ان عطلت يداي من الغنا * كم سابق في الخيل غير محجل
صان اللئيم وصنت وجهي ماله * دوني فلم يبذل ولم اتبذل
ابكي لهم ضافني متناوبا * ان الدموع قرى الهموم النزل
لا تنكروا شيبا الم بمفرقي * عجلا كان سناه سلة منصل
فلقد دفعت الي الهموم تنوبني * منها ثلاث شدايد جمعن لي
اسف على ماضي الزمان وحيرة * في الحال منه ووحشة المستقبل
ما ان وصلت الي زمان اخر * الا بكيت على الزمان الاول
لله عهد بالحمى لو انسه * ايام اعصي في الصبابة عذلي

ورحم الله ابن قلاقس الاسكندري * اذ قال في معنى التشبي المصدري * شعر

لعل زماني بالعتيب يعود * فيقرب مقترب او يصد صدود
وابصر كثبانا وهن روادف * عليهن اغصان وهن قدود
واقطف ورد الخد وهو مضرج * واجني اقاح الثغر وهو برود
وادني ذراعي للعناق ذريعة * فتنهي عن الانزاط فيه نهود
ويسري الي البدر وهو ممنع * ويغدو الي الظبي وهو شرود
ونكرع في شكوى الفراق كاننا * نوارط هيم راقهن ورود
واكبر مقدار الهوى عن كبيرة * واحمي عفافي دونه واذود

وفرق ما بين الجوهر والعرض * والصحة البينة والمرض * والدر والحصى * والحسام والعصا * والرجوع الي التفويض للاقدار * في امور هذه الدار * الكثيرة الاكدار * هو المطلوب والمرجو من الله سبحانه جبر القلوب

يا رب نفس همومي * واكشف كروبي جميعا * فقد رجوت كريما * وقد دعوت سميعا *

ولم يقبل المذكور حفظه الله فسحه ولا منفوحه * بعد هذه الاعذار المحموده في الصدق الممدوحه * ولسان حالي وقالي * ينشدان بمجزي عن ادا هذا الحق بشهادة من هو واد وقالي * اذ من كان بصفة غير متمكنة ما تكون به متصفه * واتسم بنعوت مختلفه * وارتسم في غير ذوي الاحوال المولفه * كيف يحير في التصنيف جوابا * او يبتغي من التاليف صوابا * ومن جفنه هام هامل * وقصوره عام شامل * كيف يقبض بالانامل على ما البحر الوافر الكامل * ومن لبس من العي ملاءه * لا يعبر عما انطبق مفاصل الكلام وكلاه * وقصرت السن البلغا عن علاه * وزانت صدور الدواوين حلاه * وجمع خلال الاحسان * وكان للدين لسانا * وزاحمت مفاخره المناكب * وازدانت بمراه النوادي والمواكب * ونفحات الازهار من ادابه * ونسمات الاسحار عطرا ذيالها واهدابه * والسحر من كتابته * والبحر من كتابته * ودوح النسيم من تعريضه * والندرة من نثره والشعر من شعره وقريضه * وحلل المجد لباسه * وانوار العلم اقتباسه * شعر

له ذهن يغوص ببحر علم * فياتي منه بالدر النظيم * معانيه الرياض لاجل هذا * سرت الفاظه مثل النسيم *

مباهيه النجوم * ومناهيه الغيث السجوم * الي آبا يحسدهم البدر والشمس * واباء لو كان للشرق ما يخفيه لمس * وشرف لا يدعي ومنتحل * وهمة لو نالها البدر لاستحيي له زحل * وبراعة ارهفت سنان قلمه * وبراعة سارت امراوها تحت علمه * فكم فتح بفكره اقفالها * ووسم بذهنه الثاقب اغفالها * وسبك معانيها في قالب قلبه ابريزا * ورقم بيان لسانه برود احسانه * باللفظ البديع تطريزا * فرفع في ميدان الاجادة لواءه * واتبع سوابقه البراعة العذبة ارواءه * ونال سبقا وتبريزا * وما زمن الشباب وانت تجري مع الاجل في الموطب * ووصل نجيب بعد هجر * باحلى من كلام ابن الخطيب * فقصيده * اهل جواهر البحور المنظومة قلايد للبات والنحور * من حسان العقايل الحور * شعر

معان والفاظ تنظم منهما * عقود لال في نحور الشمايل *
وزهر كلام كالحدايق نسجه * غنيت به عن حسن زهر الخمايل *

وكم غدت للابداع اقليدا * وجمعت طريفا من البلاغة وتليدا * وكسوة جيد اشباب الجيد * واضحى لبيد ذهن بليدا * وهنت الذي في الاسماع من مطرب السماع * وابهى في الاحداق والنواظر من الحدايق ذوات الاغصان الملد النواضر * يعترف ببعضها

Copyright King Saud University